

الغزل الأرمي وهموم الحياة

بقلم: محمد الرابع الحسني الندوي

الشعر

في اللغة الأردية ذو تاريخ عريق، وقد بدأ هذا التاريخ بتقليده للشعر الفارسي واختيار منهجه وباستفادته من الشعر العربي، وتاريخه الجديد يمتد إلى أكثر من قرنين، وكان في مبدئه يتصف بجزالة اللفظ وبراعة في المعنى فحسب، وكان وسيلة متعة للأثر براء من الناس ثم أصبح ترجمانا لمشاكل الحياة بالتعبير الرقيق عن الحياة، وبصورة خاصة لنقل العواطف الإنسانية والمشاعر ذات الأهمية وهموم الحياة.

سواء، يقول الشاعر العربي أبو العلاء المعري في قصيدته للرباء داعياً إلى احترام الإنسانية وكرامة ابنائها ولو بعد ما أصبحوا تراباً: خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض الا من هذه الأجساد سر إن استطعت في الهواء رويداً

لا اختيالاً على رفات العباد والشاعر الأردني يقدم مثل هذا المعنى فيختار تعبيراً غزلياً بقوله: "خفني الوطء يا راحة الزهر على الأرض، فكم من نفوس ناعمة رقيقة الطبع تنام في هذه الأرض" (الشاعر مظهر جان جانان).

ويزيد شاعر آخر هذا المضمون رقة فيقول: "هذا الربيع يا ربيع الصبا مرتع البابل والعنادل، وهي التي خضبت بدمائها الزكية فلا تسيري فيه الا بتحفظ واحتياط، فانه ليس مربعا ولا بستانا لك".

وهذه بعض نماذج شعر المتقدمين من فحول الشعراء بالأدب الأردني، يقول غالب: "يا رب إن حبيبي لم يعرف ولن يعرف ما أعانيه من محنة، فأعطه قلباً آخر غير قلبه الحالي اذا لم تعطني لساناً آخر غير لساني الحالي".

"اني أعترف بأنك لن تتعافى عني، ولكن كيف بك اذا وصل خبر قصاصي اليك متأخراً عن وقت انفاذي".

"ان مصائب الحياة وآلامها مهما امتد عهدها ستنتهي عند الموت ومثالها في ذلك كمثل الشمعة تستمر في الاضاءة والاحتراق في الليل بقدر ما يسعها ذلك ثم تنطفئ بطلوع الصباح".

"ما أعظم مصاب الإنسان اذا امتد واشتد حتى يتمنى صاحبه الموت، فيأله من إنسان يغرق في نهر من بأس قاتل".

"الحياة احتفال ومهرجان فاذا لم تكن بالأفراح والمسرات فلا بأس في أن تكون بالبكاء والأحزان".

ويقول الشاعر مظهر جان جانان: "إن خروج العنديل من عشه واغترابه عن مكانه يحملاني على الأسى له والأسف على حاله، لأنني أراه يبرح عشه المريح هيماناً في طلب الأزهار".

يقول الشاعر مير تقى مير: "كانت أواصر المودة والإحسان قائمة بيني وبينها فكبت أحتمل

الموت، أو أية عاطفة أخرى حتى أنهم أدخلوا فيه معاني الأخلاق والنصيحة كذلك، ولذلك ما دمت تجعل الغزل أداة لتصوير العواطف الإنسانية كان غزلاً، وإلا صار هيكلًا مجرداً من الكلمات والألفاظ" انظر (العلامة عبد الحي الحسني في كتابه «جل رغن»).

عندما يتحول الغزل إلى معان ترفع إلى حب واسع الآفاق.

وان شعراء هذا النوع من الغزل يتشبهون بالاستعارة والكناية يقتبسونها من مجالات عدة: من البستان والحديقة أو من أحوال المحب والمحبوب، أما البستان فيحتل في نظرهم محل حياة السعادة والشقاء يمثل عش العنديل فيه دار سعادة وقرار، أو مطعم خصوم وأعداء، أما العنديل فهو الطائر الساعي في طلب سعادته والهائم في سبيل منشوده في البستان وحول الرياحين والأزهار، وأما الصياد فهو عدوه الظالم يرصد حركات العنديل يتحين غفلته ويطلب فرصة ضعفه وقد يستعير الشاعر بدلاً من الصياد برق السحاب الذي يلمع في السماء، ينزل صاعقته على عش الطائر المسكين، ويتخذ الشاعر من أحوال العنديل مثلاً لحياة الرجل الذي يريد العيش المأمول وتحقيق ما ينشده من أهداف ويتخذ الحب للأزهار مثلاً لحب الرجل لأهدافه وأماله وهكذا.

أما إطار المحب والمحب فيستعير الشاعر كلمات تخص المعاني المتصلة بهما لإظهار الحرمان واليأس والتجسر على الآمال البعيدة، ولبليل الجهد للوصول إلى هذه الآمال، ويستعير كلمات تخص الوشاة والعاذلات والناصحين والوعاظ.

أما الخمر فإن الشاعر يستعير الكلمات المعبرة عن معانيها لبيان اللذة والهناء بالوصول إلى المطلوب، ولبيان الهيام والفداء في سبيل المنشود، وللوصول إلى المطلوب ولنسيان كل ما

وارتقى الغزل في هذا الاتجاه، ورتت إشارات وتلطف تعبيراته، وتجددت معالم قصائده واتسمت بالعدوية والاختصار، وتوسع الشعراء في أغراضه توسعهم في الشعر الوجداني، واستخدموه للتعبير عن تأملاتهم، الإنسانية وأحوالهم النفسية ومشاعرهم نحو الكون والحياة ولإفضاء بما في نفوسهم من شكاوى ولوم، وضمنوها معاني الحكمة للتعبير عن أحداث المجتمع النفسية للتذمر الفردي والهجوم النابغة من أحداث الحياة الاجتماعية، وللتنفيس عن شعور الكبت والأذى النفسي، وبدأ ذلك بصورة كبيرة منذ زمن اضطراب الأحوال وظهور الفوضى في حياة المسلمين وتعرضهم للاضطهاد

النفسي والظيم السياسي عندما بدأ انحسار دولتهم وشوكتهم في بلاد الهند، وهي التي حكموها بضعة قرون بعزة ومجد وفي عهدهم الأخير، أصبح هذا النوع الغزلي فيما بعد أداة فنية لطيفة يستعين بها أهل الثقافة والأدب والفكر في التعبير عن حاجاتهم الأدبية والنفسية.

كما أصبح الغزل الأردني بذلك لوناً شعرياً واسعاً، ولم يعد مقصوراً في موضوعه على إظهار أحوال الصبوة والعشق فحسب، بل تطور وأصبح أداة تعبير عن أحداث الحياة وتجاربها النفسية أيضاً، واستخدمه الشاعر الأردني لبيان كل ما يجتاح قلبه من مشاعر نحو وقائع نفسه ونحو سلوك غيره، حتى نحو موضوعات سياسية واجتماعية يمر الشاعر من خلالها مكتسباً كساء الحب والعشق للتعبير عن معاناته وهموم الحياة وعمما يقاسيه أو يحظى به في الحياة، ويتحدث عن سلوك غيره، وعن قسوة الظروف الطارئة له أو لمجتمع أو بيئته.

يقول العلامة عبد الحي الحسني أحد مؤرخي الأدب الأردني ونقاده المعروفين عن تطور الغزل الأردني واتساع آفاقه: "انما الأمر في الغزل هو أنه في أصل معناه ومضمونه ذكر الحب ولوعة الاشتياق، ولكن شعراء اردو جعلوه في أول عهده أداة للتعبير عن العواطف الإنسانية سواء كان مضمونهم الفرح والسرور، أو كان الحزن والتجسر، أو الخجل والتندم، أو فناء الدنيا أو

الإنسان، وهو يشعر منها عناءً وعنتاً، هي التي تجعل الحياة الإنسانية متدفقة بالنشاط والحركة. «إذا كان العاشق المتوجه إلى حبيبته يتوقف في طريقه على كل منزل ويستظل بكل جدار فكيف يصل إلى الحبيب».

ويشير الشاعر إلى القسوة التي يواجهها المسلمون، فيقول:

«ما أشد الشقاء والأحزان على العاشق الذي جعل منزله في البستان، والبستان أصبح لا يلائمه ولا يطيب له البقاء فيه».

إن الحالة التي وصلنا إليها من حياتنا جعلت الانتحار أفضل من الاستمرار فيها لأن الإنسان اليوم أصبح عبثاً ثقيلاً على أكتاف الإنسانية.

هذه الأيام والليالي، وهذه الأسفار والأمسيات. وهذه المساكن والأطلال كلها مليئة بالحياة والحركة. إذا تصف الإنسان بالحياة والحركة.

لقد بلغ أمر حياتي أن نفسي لم تعد ترغب في الانسجام ولا في البكاء وسفح الدموع.

يا من يمر معرضاً عني بخطى خفية، ماذا عليك لو عرّجت عليّ فحملت مني

أشواقِي وأحزاني، يملك الإنسان عقلاً ثم يجهل، يا له من مخلوق طال بظله، أما واقعه فصغير وقصير».

ويرى الشاعر أن السرور ليس متنفساً صحيحاً لحياة الناس إنما متنفسه الصحيح فهو الحزن والأسى، يقول:

«ماذا سيتعزى هذا الإنسان المحب المسكين؟ وماذا يسليه إذا لم تلائمه الأحزان ولم تنفّق معه الآلام».

الحب طاقة وقوة كبيرة، لو تمرت وطغت لسال منه بحر من الدماء واشتعل منه نهب من النار.

ترغب نفسي أن تفر من مضمار الجهاد، ولكن كيف الفرار والطريق مسدود، ما فائدة المسرات والأفراح إذا كانت الروح لا تجد فيها الارتياح واللذة.

الشعر ليس رانعا إلا إذا تشدته الروح واستمعت إليه الروح.

نحب أن نعرف أحوال غيرنا، ولا نحب أن نعرف أحوالنا.

اشتدت آلامنا وقسا زماننا، وتاهت قوافلنا وامتلأت دروبنا بالأخطار والأحوال، ماذا يريد هذا غريبنا؟ كيف حلنا وترحالنا، فإن سفرنا هو في وطن ووطننا هو في سفرنا».

هذه إشارات إلى ما صار إليه العرب الأرمي خلال القرنين الأخيرين، فقد أصبح يحمل معاني التأمل والظفر. ويحمل الشعور والانفعالات النفسية والأحاساس المطفة السخمة وأحلام الحبة والأماني، والقيم الأساسية الرفيعة، في ذلك مكتسباً لساناً عربياً ويعبر شاعراً عبقرياً.

وطريقاً أشبه بالحوار، واستبدى في أحسنه وممارسته أصحاب الصلاح وأصحاب الاحتمال وهوأة الأدب على السواء كل بطلته ولأهدافه

والنزاهة الخلقية، وبذلك أصبح الغزل مرتفعاً عن سفايف الحياة وسائر في أجواء السماء، ومرتفعاً عن المعاني الهابطة إلى معان نبيلة حقّة ومقاصد سامية رفيعة تنقله من التغزل الأرضي المحدود إلى الحب الحقيقي الواسع الآفاق.

وتلا هؤلاء الشعراء شعراء فحول حذوا حذوهم وساروا على دربهم، منهم من نزعوا نزعة وجدانية وعاطفية فجالوا في مجال النسيب أو خرجوا منه إلى جوانب الحياة الأخرى، ومنهم من نزعوا نزعة إسلامية طريفة. ومن هؤلاء الخاجا الطاف حسين حالي، وأكبر اله أبادي، وشاعر الإسلام الدكتور محمد اقبال، وهؤلاء لم يحصروا جهودهم الشعرية في صنف الغزل وحده بل طرّفوا صنوفاً من الشعر أخرى أيضاً، أما المختصون بصنف

الشعر ليس رائعا إلا عندما تنشد الروح وتستمتع إليه.

الغزل الحافل بمعاني الحياة فمن أهمهم في العهد الأخير أصغر كوندوي، وحسرت موهاني وجكر مراد أبادي وغيرهم.

واشتهر منهم أخيراً جكر مراد أبادي بالشعر الغزلي الرائع، حتى ملك القلوب وسحر النفوس وجاء بالجدّة والطرافة في أسلوب غزلي رقيق مؤثر، حتى لقب بـ «رئيس المتغزلين» لما كان له من باع طويل في أحداث المعاني المبتكرة في النسيب برقة وشجن عجيبيين، وقد بلغ من تأثيره على الشباب أن هاموا حول شعره هياماً، وكان في أول عهده شاعر الحب العذري الذي يرضى بالحرمان، ويجد في اللوعة لذة، وكان شاعر خمر وهيام، ولكنه انتقل تدريجياً إلى قضايا أمته، وتحول من ملاهي الصبوة إلى الشعور بالآوضاع المؤلمة فيها، فبدأ يصوغ في قالب الغزل هموم المسلمين في الحياة القومية خلال فترة الانتقال من الاحتلال إلى الاستقلال، وتقسيم البلاد، وتغيير الأوضاع السياسية وتحدث عن هموم النفس المسلمة في ظروف الحياة القاسية عبر كنايات واستعارات غزلية لطيفة، واستخدم الحوار الرشيق وتنقل بين أسلوب الحقيقة الواضحة حيناً وروعة أسلوب المجاز البارع حيناً آخر.

وكان يتخذ من مجال الحب مجالاً للحياة الإنسانية ويجعل الحياة الإنسانية صورة لحياة الحب، يقول:

«الحب وثام والحب خصام، والحب رياحين وورود، والحب سيف ورمح، نفس العاشق مليئة بالغيرة والآباء، تملك حساسية شديدة، ولكنها قليلة الاحتمال أيضاً.

يعد الشاعر روح الحياة الإنسانية هو الحب، فيقول:

«إن الأحداث والأحوال التي تمرّ منها حياة

منها دلّها وإعراضها فإذا انقطع الحب بيني وبينها فلماذا أعطيها من نفسي القيادة».

ويقول الشاعر الحاج ميردرد: «تسمحين للصبا أن تمرّ من دروبك ولا تسمحين لي بأن أمر فيها، فيا لشدة حرمانني وسوء حظي وسقوط منزلتي».

يقول الشاعر يقين: «يا عاذلي، أليس من حقّي أن أشقّ جيب في حالة صبوتي ولوعتي، أليس هذا الجيب جيبي؟ أليس الجيب جيب قميصي أشقّه بيدي».

يقول الشاعر مؤمن خالده مؤمن: «لا يصح منك أن تعتذر بلوم العاذلين ومنع ذوي القربى لأنك أنت الذي لم تشأ، وإذا لم تشأ فلك أن تعتذر بالث عذر».

يقول الشاعر تسليم: «كم يحزن الطائر ويشعر بالألم عند ما يرى قدرة الطيران في جناحه والقفص يمنعه من الطيران، فانه لو كان مكسور الجناح لساق له الصبر ورضي بالأس».

يقول الشاعر أكبر: «فان صدرت منا أمة واحدة يقع علينا اللوم، أما هو فلا يلام ولو سفك الدماء».

ويقول: «لك طريق عجيب للإحسان والإسعاف: تسبّين لي المريض، ثم تصحّنيني بالعلاج».

ومن شعر الملح، الذي يعرّض فيه الشاعر بخصوم الدين: «لم أزد عن أن وصفت الشيطان رجيماً، فهاجوا وماجوا وقالوا: يا لسوء الأدب ولخسارة القول».

ولقد نبغ في مثل هذا الشعر الغزلي في القرنين الماضيين طائفة لا بأس بها من الشعراء، وهم طبقات، ويتزعم طبقتهم الأولى الشاعر مير تقى مير، والشاعر الميرزا مظهر جان جانان، والخاجا مير درد، ومؤمن خان مؤمن، والميرزا أسد الله خان غالب، فهؤلاء الشعراء هم أول من اتخذوا الشعر الغزلي وسيلة لبث هموم البشرية المكلمة بتأثير أحداث الحياة ومعناها الاجتماعية والفردية مستخدمين لها الاستعارات من الغزل والنسيب أو الربيع والبستان أو الطائر والصيد.

وكان هؤلاء الشعراء ممن عاصروا زمن تهاوت حكومة المسلمين في الهند وسيطرة الاستعمار الانجليزي عليها واستخدامه وسائل القهر والظلم لتذويب القوى الإسلامية فأوجد الكبت والتدمير الشائعين في نفوس المسلمين.

لقد كان من مميزات الشعراء «مير» و«مظهر» انهما رفعوا الغزل من صورته الهابطة وجعلاه حاملاً لهموم الحياة.

واسع الآفاق

فقد غلبت على الشاعر «مير» الرقة والنعومة وامتاز شعره بتطوير المعاني الغزلية، وامتاز الشاعر «مظهر» باختيار المعاني الروحانية والصفاء الباطني أيضاً، وشاركه في ذلك الشاعر المعاصر له «درد»، الذي أضاف إلى الغزل صوراً فلسفية وروحانية، وأما الصور الفلسفية فقد منحت الغزل العقلانية، وأما الروحانية فقد أعطت الغزل الصفاء